



ارتفع علم الثورة السورية في ساحة ميدان في العاصمة الأوكرانية كييف خلال الانتفاضة التي أطاحت حليف روسيا فيكتور يانوكوفيتش في شباط (فبراير) 2014، وكان ذلك تعبيراً عن وحدة المشهد الذي يجمع الثورات الحديثة في العالم. وربما منذ ذلك الوقت يضم الرئيس الروسي فلاديمير بوتين الشر للثورة السورية التي أخذت تتجدد بعدما استمر في تعطيل مجلس الأمن وإمداد نظام الأسد بالأسلحة والذخائر التي تقتل الأطفال والأبرياء.

وتتخذ إدارة الرئيس بوتين موقفاً جذرياً من ثورات الشرق الأوسط وأوروبا إلى حد أنها رفعت درجة المخاطر التي تشكلها «الثورات الملونة» على أمنها ومصالحها وأدخلت مهمة مكافحة إرهاباتها في صلب العقيدة العسكرية الروسية الجديدة. ويبدو أن انتصار الشعب السوري على نظام الأسد لديه وقع عالمي ويشكل واحدة من تلك الإرهاصات التي تصل إلى موسكو، فهو يسقط هيكلأً إضافياً من تلك التي أخذت تتراكم منذ ثورة الورود في جورجيا أواخر 2003، حيث لا يعود بوتين قواعد نفوذ خارجية يستطيع الإطلال عبرها على التوازنات الدولية.

وهذا الأمر يشكل مأزقاً حقيقياً لروسيا التي تصبح ملزمة بالتدخل العسكري لوقف خسائرها ومحاولة فك العزلة الدولية عنها. إنما هل تقف خيارات روسيا فعلاً عند هذا الحد الذي يستدعي التصرف في سوريا وكأنها ضمن الفضاء الروسي المباشر، وهل ستفضي العراضة الروسية في الشرق الأوسط إلى تكريس دورها كشريك منافس للغرب في النظام الإقليمي الآخذ في التبلور، أم كمتصدِّ لطموحات الشعوب وداعم للديكتاتوريات ليس إلا؟

طبعاً إن اللغة التي تمسك بها روسيا مصالحها هي لغة العداء التاريخي للغرب والخوف من انتشار الديمقراطية، أما التوجهات الداخلية للشعوب في التحرر من طغمة الحكم الفاسدين فلا تشكل بالنسبة لها إلا تهديداً للمصالح الاستراتيجية! والدخول على خارطة المصالح الدولية من هذه النافذة الضيقة يُفقد روسيا أدوات التحليل والمماطلة الحديثة. والروس يتقصدون فعل ذلك، بحيث أن زيارة موسكو أو المشاركة في أحد مؤتمراتها لتحليل ودراسة السياسات في العالم تُظهران ذلك بسهولة. فهم لا يريدون الاستماع إلى النصائح والتوجهات المخالفة لرغباتهم. وبالتالي فالسياسات الخارجية تصاغ وفقاً لقواعد وهواجس محددة مسبقاً وقياساً على مقدراتهم العسكرية.

لقد استعجل بوتين دعوة المتطرفين عنده لمقاتلتهم والتحارب معهم على الأرض السورية بدل التقاتل معهم في روسيا، بالضبط كما فعل قبله أمين عام «حزب الله» حسن نصر الله عندما دعا من يريد معارضته في لبنان إلى مواجهته على الأرض السورية.

وكشف بوتين عن هواجسه المكبوتة تجاه الربيع العربي وما يُكتَنَّ للتحولات التي جرت بعد 2011 والتي اتخد منها موقفاً جذرياً، حيث يشكل تحويل تلك التحولات أو إشغالها في موطنها الأم مصلحة استراتيجية لروسيا تُبعَد تأثير الإسلام السياسي عنها، تماماً كما أن التصرف الاستباقي الحازم يبعد تأثير «الثورات الملونة» عن ساحات موسكو.

ما لم يقله بوتين قاله ميدفيديف عندما اعتبر «أننا نقوم بحماية الشعب الروسي من التهديد الإرهابي لأن من الأفضل فعل ذلك خارج حدود بلادنا»، وهذا يُذكَرَ بما قاله جورج بوش قبل ذهاب جيشه إلى أفغانستان من أنه سيقاتلهم هناك بدل قتالهم في شوارع واشنطن. الأمر بالنسبة للولايات المتحدة لم يكن غريباً، فهي تعتمد الحرب الاستباقية في كل خططها الاستراتيجية، أما بالنسبة لموسكو فالجديد هو التدخل الخارجي الاستباقي بعيداً من حدود الاتحاد الروسي، ما يضع روسيا على مسار الإمبريالية الصاعدة على الساحة الدولية.

فما هي النتائج التي يحصدتها بوتين من كل ذلك؟

بالتأكيد لن تنزع الولايات المتحدة من تحول الجهد الخارجي للمتطرفين الإسلاميين تجاه روسيا بدل الغرب، لا بل إن الخلفية العقائدية التي وضعَتُ الإسلاميين في مواجهة شيوخية الاتحاد السوفياتي «الكافرة» تعيد انتاج ذاتها لمجرد تورط بوتين في الحرب ضد الثورة السورية، آخذَا جانباً معاكساً لهوية الشريط الإسلامي الذي يحازيه.

ومشكلة بوتين تكمن في احتمال أن يظن نفسه محصناً عربياً أو إسلامياً لمجرد تنسيق بعض أعماله مع مصر وحاجة العرب إليه كبائع للسلاح!

لقد أراد العرب إدخال روسيا شريكاً رئيساً لهم على قاعدة التخلِّي عن احتكار الولايات المتحدة الحصري لتلك الشراكة بعد التردد الذي اتبعته إدارة أوباما تجاه قضيَّاتهم الرئيسة والتواطؤ مع إيران في العراق ومراعاة مصالحها على حساب العرب، وكذلك فعلت تركيا التي ابتعدت عن أوروبا وانفتحت على روسيا وأبرمت معها اتفاقيات اقتصادية متخطية العقوبات الأوروبيَّة والضغوطات التي أقفلت أمام موسكو طرق نقل الغاز إلى المتوسط.

لكن النتيجة كانت إهدا روسيا كل ذلك ورَسْمَ بوتين طريقاً معاكساً لمصالحه الحقيقية في المنطقة. وبدل الاستفادة من فسحة الشرق الأوسط لتعويض خسائره مع أوروبا، أعاد تكرار الخطأ الذي ارتكبه في أوكرانيا، حيث خسرها وخسر معها ثقة العالم مقابل أرباح متواضعة اقتصرت على عرض مُوقَّع للعضلات في شبه جزيرة القرم وإقامة آمنة للرئيس المخلوع فيكتور يانوكوفيتش في أحد منازل موسكو!

فلدى روسيا في المنطقة مشروع سياسي - عسكري متكامل، ربما إحدى حسناته مزاحمة إيران وأخذ مكانها، إنما الديكتاتوريات على أشكالها تقع. والدخول الروسي إلى سوريا يوازي بتأثيره الدخول الأميركي إلى العراق، في ما إذا استحكم.